المنظور الأبدي للحياة

الأب حبيب هرمز
2000

مقدمة

كثيرا ما يلتبس علينا فهم معنى الأبدية وعلاقتها بالزمان والمكان، ذلك بسبب تأثير الحواس الكبير على مداركنا العقلية، وقصر النظر الذي نعانيه أحياناً كثيرة عندما لا ننظر إلى المسألة من الناحية الإيمانية العميقة. كما ونواجه أسئلة كثيرة بخصوص مسائل إيمانية ودينية مختلفة مثل السؤال عن جدوى تقديم نيات القداديس والصلاة والنذور وغير ذلك لأجل الأموات. وكمحاولة لكشف أبعاد مختلفة لحقيقة المنظور الأبدي لحياتنا ودور التدبير الإلهي، كان هذا المقال.

الله والحياة

لقد خلق الله العالم، وهو أساس الوجود وقوته حسب ما يقوله اللاهوتي الالماني بول تيليخ Paul TILLICH، وهو فيه وحوله بمفارقة عجيبة، فهو الغريب والقريب. ففي آيات من سفر التكوين، يكون الله القريب، وفي أخرى من أعمال الرسل، نجده غريب وقريب في نفس الوقت" وجبل الرب الإله الإنسان تراباً من الأرض، ونفخ في انفه نسمة حياة، فصار الإنسان نفساً حية." (تك 2: 7). " ان الله الذي صنع العالم وما فيه، والذي هو رب السماء والأرض، لا يسكن في هياكل صنعتها الأيدي، ولا تخدمه أيد بشرية، كما لو كان يحتاج إلى شيء، فهو الذي يهب لجميع الخلق الحياة والنفس وكل شيء، فقد صنع جميع الامم البشرية من اصل واحد، ليسكنوا على وجه الأرض كلها، وجعل لسكناهم أزمنة موقوتة وأمكنة محدودة، ليبحثوا عن الله لعلهم يتحسسونه ويهتدون اليه، مع انه غير بعيد عن كل منا." (أع 17: 24- 28)

والحياة الإنسانية، هي طريقة عيش الإنسان بدرجات نسبية حسب مستوى الاختبار الإنساني لحقيقة كونه كائن حي مدعو إلى الوحدة في الكيان في الزمان والمكان. فالإنسان كتلة من العناصر المتفاعلة وسط بيئة معينة، وثقافة معينة، وإنتماء معين، يتطور من خلال انفتاحه على العالم ، يحيا حالات الرفض والقبول، الأخذ والعطاء، وسط ثنائية كثيفة مثل: الخير والشر، العدالة والظلم، الحق والباطل ...إلخ،محاولاً استيعاب ما هو داخله وخارجه ليهضمه ثم قد ينضج إنسانياً ويتحول إلى شخص ثم إلى فرد فريد في عين الله. فالحياة عطية الله، يمكن ان تتحقق في درجة عليا كحياة معقلنة ذات صلة جيدة بسر الله، ويمكن ان تجعل منها ملكوتاً الهياً.

يسوع المسيح والمسيحي

تسمو الحياة الإنسانية، من خلال التدبير الإلهي، وخصوصاً بنعمة الرب يسوع المسيح ، وتتطابق مع مشيئة الخالق في نظرة أبدية الى الزمان والمكان. فنحن نعيش الحاضر بشكل يعطي معنى لمسألة الموت مع المسيح، كما أكد الرسول بولس في رسائله الى رومية وغلاطية وقورنثية وكولسي. فقد عاش المسيح حياته وفق اعمق معنى للمنظور الإلهي حول ما يفترض ان يكون الإنسان عندما يكون إنساناً بكل معنى الكلمة وهو يتحول من مجرد كتلة حية إلى شخص في المجتمع يساهم في بناء الملكوت (ليأت ملكوتك)." أوتجهلون اننا، وقد اعتمدنا جميعا في يسوع المسيح، إنما اعتمدنا في موته."روم 6: 3."فما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيَّ." غلا 2: 20. " مجهولين ونحن معروفون، مائتين وها اننا أحياء، معاقبين ولا نقتل." 2 قور 6: 9. " حياتنا مخفية مع المسيح في الله." كول 3: 4. فالمعمودية تفتح الطريق لان يحيا المسيح في الإنسان، فيسير خلف يسوع حتى الموت، ويقوم فيه.

إن المسيحي يشترك مع المسيح من خلال الروح القدس كمنتصر على الموت وداخل الأبدية."لتكون به الحياة الأبدية لكل من يؤمن." يو 3: 15. وهذه الحياة الأبدية تزيد حيوية حياة الإنسان الى ان تصير حياة ممجدة. " يا ابت، ان الذين وهبتهم لي أريد أن يكونوا معي حيث أكون فيعاينوا ما وهبت لي من المجد." يو 17: 24.

الله والخلق

إن بين لفظة الله والأبدية، علاقة دائمية تربطهما مع الزمان والمكان كلمة الخلق، فعندما نقول المنظور الأبدي، نقصد الإلهي عينه، لان الأبدية صفة لله، حيث لا زمان ولا مكان وفق المعنى الشائع عنهما، وهكذا يكون المنظور الأبدي هو الإلهي، وهو منظور ابن الله نحونا، ونظرة الإنسان الداخل إلى ملكوت الله (كلعازر في قصته مع الغني (لوقا 16: 19-31)، أو موقف الأطفال الذين هرعوا الى يسوع (متى 19: 13-14)، أو حالة لص اليمين مثلا(لوقا 23: 42-43)).

إن المنظور الأبدي غير مرتبط بالزمان والمكان، وفي نفس الوقت هو حاضر الآن، (وهذه مفارقة أخرى نجدها بكثرة في الكتاب المقدس)، لنتذكر في الإنجيل الآية: " إن ملكوت الله داخلكم " (انظر الشكل1).

فعندما يخلق الله أي شيء حتى الإنسان ، فهو يعلن انه ملك الزمان والمكان. ولأن الخلق مستمر منذ لحظة ال Big Bang[1] ، والى آخر لحظة في الزمان والمكان. لكن من خلال يسوع يأخذ الله وضعاً إنسانياً، حيث يدخل هذا الوضع الإنساني المرتبط بالزمان والمكان في الأبدية. وكما يقول كارل راهنر، فإن الزمان يصبح اناءً يملؤه الله بأبدية تتناسب والإنسان المنفتح لنعمة الله بتناسب طردي بين الانفتاح والإملاء، أي العيش في الرجاء المسيحاني (انظر الشكل).

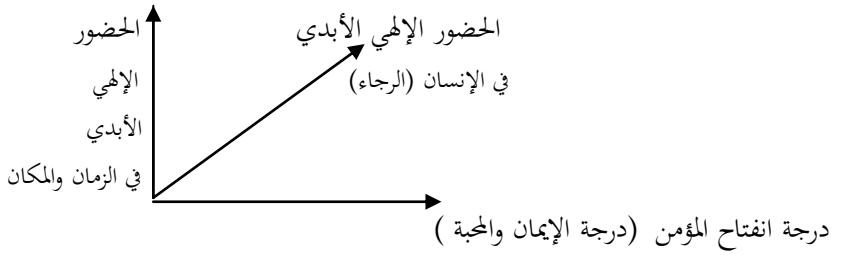

شكل يبين العلاقة الطردية بين الحضور الإلهي الأبدي في الزمان والمكان، وبين درجة انفتاح المؤمن

يسوع المسيح والحياة

حسب الرسول بولس، ان الحضور الإلهي الأبدي بيسوع، يؤدي الى نتيجة ان الله هو العطاء."ان الذي لم يضن بابنه نفسه، بل أسلمه الى الموت من أجلنا جميعاً، كيف لا يهب لنا معه كل شيء ؟" روم 8: 32 . والعكس أيضاً صحيح، فالإنسان المعطي يزداد قربا من الحياة الأبدية كلما ازداد عطاؤه حتى يصبح حاوياً للملكوت عندما يكون عطاؤه كاملاً.

إنّ الإنسان ذو الفعل البشري الكامل المتسم بالإرادة والعقل والمشاعر وبقية الصفات، والمؤمن الحاصل على النعمة بالمسيح، والسائر حسب منظور القيامة في نعمة الهية، يجعل من نواله للتوبة وغفران الخطايا بالمسيح (حسب سفر اعمال الرسل، الفصل 2-5) افتتاحاً للملكوت.

---

[1] لحظة افترضها علماء الفيزياء والفلك لبداية خلق الكون، ويقال انها حدثت كانفجار عظيم قبل ما يقرب عن 16 مليار سنة .

إنّ الله بالمسيح، هو في متناول مدارك الإنسان الذي عليه أن يجتهد للدخول في الباب الضيق، كي يعرف حقيقة يسوع. وهكذا تكون الحياة الأبدية، " والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك " يو 17: 3. وقد أدرك آباؤنا في الإيمان هذه الحقيقة الرائعة فادخلوا الآية أعلاه في صلاة الكاهن عندما يستعد لمناداة الروح القدس كي ينزل ويحل على خبز وعصير التقدمة في وليمة السر الافخارستي منذ القرون المسيحية الاولى.

الإنسان هو مجد الله، وخلال حياته يدخل باب يسوع وهو في طريقه الضيق نحو الحقيقة والحياة، فباب المؤمن وطريقه وحقيقته وحياته هي المسيح. وهو حامل يقيناً له جانب حسي مرتبط بالزمان والمكان، وجانب ابدي مثلما كان يسوع لا ينطق بكلمة أو يعمل حركة بدون الآب،" الحق الحق أقول لكم: لا يستطيع الابن أن يفعل شيئاً من عنده، بل لا يفعل الاّ ما يرى الاب يفعله ..." يو 5: 19-20 و 30 و متى 11: 27، وهو الذي قال:" بدوني لا تستطيعون ان تفعلوا شيئاً ".

لقد مات يسوع من اجل الجميع، فلا يجوز للإنسان ان يحيا ويموت من اجل ذاته (2قور 5: 14)، هنا وضع بولس المحبة في اعظم مرتبة من الإيمان والرجاء، ان الإيمان قرار إنساني ينتهي مع الرجاء بموت حاملهما، لكن المحبة تدوم الى الأبد، مثل الدم الذي يتجول في الشرايين من عضو الى عضو، هكذا يكون مثلا حضور القديس (أي قديس) في حياة الناس، والذي سيبقى الى الأبد ينبوعا يسقي زرع الحياة والقيامة الأبدية.

الحياة والقيامة في رجاء

حسب الإيمان المسيحي، خلق الله الإنسان لأجل الحياة الأبدية، والإنسان طبيعة ذات أبعاد مادية ونفسية وروحية يؤثر كل بعد على البعدين الآخرين، فكيف نقول انه عند الموت تنفصل النفس عن الجسد؟، فالنفس وحدها ليست إنسان، والجسد ليس وحده إنسان، وهكذا مع الروح، لكن الذي يحصل هو تحول من حالة غير ممجدة الى حالة ممجدة.

إنّ الانتقال إلى الحياة الأبدية، يتم طول الحياة من خلال تحول (موت وولادة)، فالنمو تحول: – يقول العلماء إن الإنسان يتجدد جسده كل سبعة سنوات ، ويتم تجديد العقل وإعادة جدولته كل خمسة سنوات–. الفتاة تصير امرأة بالتحول، والشاب يصير رجلاً، والطفل الكبير لا يصير رجلاً أبداً إلاّ بعد تركه الطفولة بالتحول. وكثيراً ما نتألم عندما نتذكر أحداثاً ماضية جميلة، ولكن الألم ضروري حتى لا نبقى في الماضي، بل نحيا المستقبل بالتحول إليه.

ونقول انه لولا قيامة المسيح، فإن إيماننا باطل. إننا نؤمن بقيامة المسيح وتمجيد الإنسان خارج الزمان والمكان، ولكن هنا يطرح التساؤل عن طبيعة حصول ذلك؟ ولا جواب الا من خلال الشواهد التي تراها عين المؤمن بالخبرة الروحية. ففي لوقا: "بدت لهم هذه الأقوال اشبه بالهذيان، ولم يصدقوهن." (24: 11). وفي مرقس: " فوبخهم لعدم ايمانهم، وقساوة قلوبهم، لانهم لم يصدقوا الذين شاهدوه بعدما قام." (مر 16: 14).

قضاء الله السابق

لم يرد قضاء الله الا عند بولس في رسائله، وعند لوقا في أعمال الرسل. فالله في أبديته يملك خطة مقصودة وبعلم واختيار مسبق (الأبد هو استمرار الوجود في أزمنة مستقبلة لا متناهية، فهو لا آخر له ولا يطرأ عليه العدم، ويقابل الأزل، والأخير هو استمرار الوجود في أزمنة ماضية لا متناهية، فهو لا اول له، والله أزلي ابدي). فحسب بولس، ان الله أعدنا أن نكون أبناءه بالتبني بحكمة سرية خفية، غايتها تمجيد الإنسان، حيث سخر كل شيء للإنسان (روما 8: 28- 29). فسابق الاختيار، اصله سابق العلم، وهذا ناتج عن محبة الله للإنسان، والمثمرة في حياة الأخير عبر النعمة التي تجعله ابناً لله.

اذاً لا معنى لقضاء الله ان لم يكن محبة، وكنتيجة لذلك، فالإنسان مدعو الى الفرح بهذا المنظور الإلهي السابق العلم والاختيار (نقصد بسابق العلم والاختيار، ان الله في أبديته ينظر الينا، وهو عارف ماضي وحاضر ومستقبل الجميع، ويخلقها في نفس الوقت، وهو مستعد لأن يقبل صلاة التضرع والشفاعة كما كانت القديسة ترازيا تصلي لاجل الهراطقة في القرون المسيحية الأولى وهي مؤمنة بقول الرسول بولس: ان طلبة البار تقتدر كثيرا في فعلها) . وهكذا فالله اختار المجد السابق الذي هو من قبل إنشاء العالم، فيقوم بخلق أعمال الإنسان الحرة التي يفترض ان تخدم ملكوته.

وهنا اختلف الفلاسفة والعلماء حول القدر والاختيار، واختلفوا مع الروحانيين حول دور القوانين الطبيعية لوحدها أم تشترك المعرفة الاشراقية في الكشف عن تجلي الله. في النص ادناه يتوضح جانب اللامادية التجريبية: "وهكذا يصير العالم الطبيعي، نموذجا باطنياً للقوانين، ومظهراً theophany، او تجلي للإله، أو علامات، أو لغة له وتأكيد للعناية الإلهية وفعله المقتدر ازاءنا. فتكون قوانين الطبيعة وسيلة ثابتة ووحيدة اختارها الله لتوصيل الأفكار المرتبطة بالحس إلى عقولنا" (حسب الفيلسوف باركلي)

وفي جانب آخر نستغرق في طلب المعرفة التي قد تتجاوز قوانين الطبيعة كما يؤكد القديسون وهم يصغون خاشعين لدعوة الرب لنا كي نصلي لنعرف الآب –لاحظ هنا ان صلاة يسوع هي منح الحياة الأبدية عبر المعرفة الإشراقية التي يحصل عليها المؤمن بالطلب–. ولكن نصل الى نتيجة القديس توما الاكويني الذي قال "ان ذروة المعرفة هي عندما نعرف اننا لا نعرف الله." أي ان الله يتجاوز كل ما يمكن ان نقوله عنه.

لكن هذا الاختيار للإنسان كي يكون آنية للمجد، له ترتيب زمني. فهناك أولاً إعداد، ثم دعوة، ثم تبرير، وأخيراً تمجيد. اما بالنسبة لغير المختارين، فقد اصبحوا حسب بولس الرسول: أنية غضب وللهوان.

اذاً، فحسب الوحي، على الحرية البشرية ان تحقق في الزمان ما قدره الله منذ الأزل، وهذا ليس معناه الجبرية، لأن أساس لاهوتنا هو التأمل في المحبة، والمحبة لا تجبر احد. فالإنسان حر في ان يرتكب الشر، والله لا يمنعه كي لا يحرمه من الحرية، وهو يخلق أعمال الإنسان الحرة مهما كانت: " أم يكون في المدينة شر، ولم يفعله الرب " (عاموص 3: 6ب)، " أنا مبدع النور وخالق الظلام، وصانع الهناء وخالق الشقاء، أنا الرب صانع هذه كلها." (أشعيا 45: 7).

لله خطة، وللإنسان خطة أيضا، وخطة الإنسان يفترض أن تكون وفق خطة الله عندما تكون لأجل إعلاء القيم السماوية كالخير والمحبة والسلام. ولكننا ننظر إلى الأفعال البشرية من زاويتي نظر: إنسانية، والهية، فيمكن للعين الإنسانية (أقصد القرار الإنساني) أن تكون شريرة أو العكس، أي تكون عين خيرة عندما يكون القلب الإنساني موضع إشعاع فرح منير، خصوصا عندما يتأمل المؤمن بكون اسمه قد كتب في السماوات (لو 10: 20)، وتكون عين شريرة عندما يكون القرار الإنساني مستقلاً عن المشروع الإلهي في تأسيس الملكوت.

إنّ من لا يؤمن بأسبقية المحبة عند الله، سوف لن يتخلص من الجبرية، فأحيانا يساء فهم معنى مصطلح (إرادة الله)، وكأنها ليست دائما موجهة نحو الخير والمحبة. فإننا نحلل الكلمات الإلهية حسب الزمان والمكان، ولأننا مرتبطين ببيئة وثقافة وانتماء خاص في كل واحد منا. كما إنّ هذا التحليل مرتبط بأسلوب الكاتب ووضعه الإنساني والجنس الأدبي المستعمل، فالمصطلحات الكتابية (كلمات الكتاب المقدس) وأحكامنا على الأحداث اليومية هي نتيجة الخبرة الشخصية العميقة للكاتب ولنا. ولكن هذه بالنسبة للبعض منا، قد تكون أحكاماً تنقصها الخبرة الحياتية التي يجب أن ينيرها الروح القدس بواسطة حكمة الكتاب المقدس، خصوصا للذين تنقصهم المعرفة. لذلك قد يصابون بمرض الاعتقاد بالجبرية والقضاء الظالم والحظ وقد يلجئون إلى أعمال السحر والشعوذة والدجل.

عندما نعمل خيراً عن نية شخص متوفي، فإننا قد نتوهم أنه لا فائدة من تقديم النية – قداس، نقود، صلاة ...لخ – لأنه مات، ولكن لنعلم أن عمل الخير لأجل الآخر له وقعه ضمن العناية الإلهية، لأن معرفة الله بحصيلة حياة الميت ومبادرتنا لعمل الخير لأجله هي معرفة إلهية محسوبة قبل أن نبادر نحن. السبب لأننا مقيدين ضمن الزمان والمكان بينما الله لا، فقط لرحمته الغير متناهية، ولكن لمعرفته الغير متناهية بقصدنا قبل موت الشخص يجعل من هذا الفعل ذو وقع لديه.

الخاتمة

خلق الله الإنسان بسابق علمه واختياره ولفرط محبته المجانية كي يتمجد الإنسان وهو يحيا كصورة له، مبادلاً محبة بمحبة نحو ثالوث (الله – الإنسان – الطبيعة). إنّ هذا التدبير الإلهي الظاهر في الزمان والمكان، كشفه يسوع المسيح في حياته حتى موت الصليب، ليعلن انتصار الإنسان على الموت وتلمسه أعتاب الأبدية من الآن في رجاء مستقبلي مفعم بالفرح. والإنسان حر في فعل الخير أو الشر المخلوق من قبل الله محترما حرية الإنسان في مشاركة الخالق حسب معرفته التي تزيد أو تنقص استناداً إلى درجة الإيمان والمعرفة.

المصادر والمراجع

- الكتاب المقدس. الاباء اليسوعيون، دار المشرق، بيروت 1991
- القداس الكلداني. نشر المطران جاك اسحق، بغداد 1996
- الله في الفلسفة الحديثة. جيمس كولينز، ت فؤاد كامل، القاهرة 1973
- المعجم اللاهوتي الكتابي، الاباء اليسوعيون، دار المشرق، بيروت 1986
- المعجم الفلسفي، القاهرة 1979